البحوث والدراسات

(بروتاجوراس والنزعة الإنسانية)

د.مريم الصادق محمد المحجوب
كلية الآداب – جامعة الزاوية

مقدِّمة:

تعد النزعة الإنسانية اتجاه فكرى عام تشترك فيه العديد من المذاهب الفلسفية والأدبية والأخلاقية والعلمية، وقد ظهرت واكتملت بوضوح في عصر النهضة. كما تمثِّل النزعة الإنسانية مذهباً فلسفياً أدبياً مادياً لا دينياً، يؤكد على فردية الإنسان ضد الدين، ويُغلِّب وجهة النظر المادية الدنيوية. كما أنَّها تمثل تياراً ثقافياً ازدهر في أوروبا، ينظر إلى العالم بالتركيز على أهمية الإنسان ومكانه في الكون، وللنزعة الإنسانية جذور وأسلاف في الفكر اليوناني القديم، إذا رجعنا إلى تلك البدايات نجد أن (طاليس624 –546 ق.م)، و(اكسينوفان426–354 ق.م) هما أول الإنسانيين اليونانيين، وكذلك (بروتاجوراس(490 –420 ق.م) الذي تزعَّم التيار السفسطائي في الفلسفة اليونانية، الذي أكَّد في مقولته الشهيرة "أنَّ الإنسان هو مقياس الأشياء جميعاً". وهذا القول يلخَّص في عبارة واحدة تعاليم بروتاجوراس كلها، وأنَّه في الحقيقة يشكِّل الفكر الشامل للسفسطائين.

وكان بروتاجوراس زعيم الحركة السفسطائية أقدم سفسطائي وأقدرهم، ورغم الاختلاف بين المؤرخين على مكانته الفلسفية إلا أنَّهم يقرِّون له بالأسبقية في توجيه الفكر الفلسفي لقضايا الإنسان، وينسبون إليه الفضل في وضع أسس النحو وفقه اللغة عند الأوروبيين.

فالنزعة الإنسانية ليست نسقاً فلسفياً محدداً وجامداً، ولا هي تعاليم مغلقة على نفسها، بل حوار دائم شهد وجهات نظر مختلفة ولا يزال، وتظل النزعة الإنسانية مع كل هذا تعبيراً عن وجهة نظر شخصية، مركزها ونقطة انطلاقها هي الإنسان.

وهنا يمكن إثارة بعض التساؤلات، التي من أهمها ما يلي:

ماالمقصود بالإنسان عند بروجوراس؟ هل يقصد الإنسان الفرد هما كمعيار الوجود؟! أم يقصد الإنسان ككل؟ أي النوع الإنساني ككل هو معيار الوجود الذي قامت عليه.

يهدف البحث إلى توضيح آراء بروتاجوراس الفلسفية حول الإنسان وحقيقته باعتباره مقياس الأشياء جميعاً، وأنَّ العنصر العقلي هو كلي، والإحساس هو العنصر الجزئي في

الإنسان. كما سيتضح ذلك من خلال الحديث عن مكانته الفلسفية، ونظريته في المعرفة والألوهية، والأخلاق والتربية، وأيضاً إسهاماته في علم اللغة، وقد اعتمدنا المنهج التحليلي والمقارن لتوضيح الأفكار المتعلقة بهذا الموضوع.

أولاً– بروتاجوراس ومكانته الفلسفية:

يعد بروتاجوراس من الشخصيات القوية التي أثَّرت في المجتمع اليوناني، وأوحت بكثير من الآراء إلى طائفة من الشعراء ورجال الدولة في عهده، وقد كان له تأثير واضح على ديمقريطس(470 –361 ق.م)، ولكن ديمقريطس نفض عنه غبار هذا التأثير فجاء مذهبه الذري مكمِّلاً لفلسفة الطبيعيين. على أنَّه من الواضح أنَّ تأثير بروتاجوراس كان على رجال الحكم والدهماء أكثر من المثقفين، وقد أشار المؤرخون لحياة بروتاجوراس وأثاره إلى بعض آراء متفرقة له في العلوم الطبيعية وغيرها، فقيل إنَّه واضع علم النحو اليوناني، وقيل أيضاً كانت له مدرسة خاصة في تعليم الهندسة، فكان يرى أنَّ قضايا الهندسة هي صور معقولة لا تتعلَّق صحتها بالواقع، إذ أنَّنا لا نستطيع مثلاً أنْ نحدِّد بالحس أين تبدأ الدائرة[1].

وعلى الرغم من الهجوم الذي شنه أفلاطون(427–347 ق.م) على السوفسطاييين[*] عموماً وبروتاجوراس خصوصاً، إلا أنَّه اعترف لبروتاجوراس بأنَّه أول من بحث في الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ، وأنَّه أول من تحدَّث عن أزمنة الأفعال وحالاتها (إخبارية وشرطية). وفي ضوء تلك الإسهامات اللغوية الرائدة لبروتاجوراس، فمهاراته الخطابية والجدلية التي يتفق عليها الجميع أيضاً لا تبارى، وبفضلها أسهم بروتاجوراس بنصيب كبير في وضع فن المنطق[2].

كما أنَّه بفضل هذه المهارات أصبح واحداً من أثرياء عصره؛ لأنَّه كان أول من أدخل نظام التعلم الفلسفي مقابل الأجر[3] أي بمعنى عندما ينال أحدهم دروس في تعليم الفضيلة عند بروتاجوراس إمَّا أنْ يدفع الأجر الذي يحدَّد له، أو يدفع الأجر الذي يراه مناسباً.

والحق أنَّ مكانة بروتاجوراس الفلسفية جعلته يكتسب شهرة واسعة في عصره من خلال آرائه الفلسفية حول الإنسان: وحقيقته وكيف يعرف؟ وبماذا يعرف؟ وكيف يسلك؟ وأصل حضارته.

إنَّه بطرحه هذه التساؤلات حول الإنسان وبما قدَّمه من إجابات تمتاز بالأصالة والجرأة غير المسبوقة، أصبح زعيماً لحركة التنوير في عصره، كما أصبح الجد الأول للنزعة البرجماتية في الفلسفة قديماً وحديثاً، وليس أدل على ذلك من أنَّ البراجماتيين المعاصرين يعتبرونه بالفعل جدهم الأول[4].

ثانياً- نظريته في المعرفة والإلوهية:

تزعَّم بروتاجوراس التيار السفسطائي في الفلسفة اليونانية، وكان يمتاز بجرأة شديدة في طرح أرائه التي زلزلت الأرض تحث أقدام دعاة الحفاظ على الأفكار والأخلاق والأعراف اليونانية العريقة.

بدأ فلسفته بهذه العبارة الهامة "إنَّ الإنسان هو معيار الأشياء جميعاً". أي بمعنى أنَّ الإنسان الفرد بما يملكه من إحساس وشعور هو مقياس الأشياء جميعاً. أي ما يبدو للفرد أو ما يحس به، فهو صحيح الوجود بالنسبة له.

وتستند هذه النظرية إلى فلسفة هيراقليطس(475-535 ق.م) القائلة بالصيرورة المستمرة والسيلان الدائم، وعلى أساس هذه النظرية التي تسلِّم بالصيرورة الدائمة، يمكن تفسير الإحساس بأنَّه حركة مزدوجة، حركة في العضو الحاس كالعين، وحركة أخرى صادرة عن الواقع الخارجي أو المحسوس، وبالتقاء الحركتين السابقتين تتولَّد حركتان أسرع من الحركتين السابقتين عليهما، هما حركة العين الرائية واللون المرئي. ومثل هذه النظرية يتبيَّن لنا أنَّ كل ما يظهر من أشياء ليس سوى أحداث ناتجة من تفاعل الحركات[5].

جمع بروتاجوراس بين نظرية هيراقليطس في التغير المتصل، ورأي ديمقريطس (460-457 ق.م) بأنَّ الإحساس هو المصدر الوحيد لمعرفة الأشياء في العالم، وخلص منهما إلى أنَّ الادراكات الحسية صادقة كلها، ذلك أنَّه لما كان الإدراك الحسي فيما يرى ديمقريطس نتيجة حركات في الذات (المدرِك) والموضوع (المدرك) الذين هما في حركة متصلة، وأنَّ قبول بروتاجوراس لهذين المبدأين دفعه إلى القول بأنَّ كل إحساس صادق في كل لحظة، وأنَّ الأحاسيس ليست نسبية وحسب، بل نسبية لكل شخص ذي إدراك في اللحظة التي تحصل فيها[6].

يتضح مما سبق أنَّ عبارة بروتاجوراس تنقل مشكلة المعرفة من الموضوع المدرك إلى الذات المدركة، ويبدو منها أنَّه جمع بين رأي هيراقليطس في التغير المستمر والصيرورة، ورأي ديمقريطس في أنَّ الإحساس هو: الأساس الأول للمعرفة، وانتهي منهما إلى نتيجة مؤداها أنَّ الإدراكات الحسية كلها صادقة(7).

ويقول سكتس امبريكوس Sextus Empiricus على لسان كريم متي في كتابه (الفلسفة اليونانية) إنَّ بروتاجوراس "يؤكـــد أنَّ كل الانطباعات الحسية والآراء صادقة، وأنَّ الصدق شيء نسبي، ذلك أنَّ كـــل شيء يبدو لشخص مـــــــــــــــــا يكون حقيقياً بالنسبة إليه"(8).

فهم أفلاطون فلسفة بروتاجوراس على هذا النحو فقال في محاورة (تياثيتوس): "إنَّ الإنسان مقياس كل شيء، فهو مقياس وجود الموجود منها، ومقياس لا وجود غير الموجود منها"(9).

ويفسِّر هذا القول على النحو الآتي: كما تظهر لي الأشياء تكون بالنسبة لي، وكما تظهر لك تكون بالنسبة لك، لأنِّي وإياك بشر. ألا يوجد لحظات تحدث فيها الريح فيها قشعريرة لأحدنا. في حين لا تحدث شيئاً للآخر، فعلى أي نحو تكون الريح في هذا الوقت في حد ذاتها؟ أتقول عنها باردة؟ أم غير باردة؟ أم توافق بروتاجوراس على رأيه بأنَّها باردة للذي يقشعر؟ وأنَّها ليست كذلك بالنسبة للآخر؟ ألا تظهر للواحد على نحو معين؟ وللآخر على نحو آخر؟ وإنْ تظهر له ألا تعنى أنَّه يحس بها؟ إذن فالمظهر والإحساس شيء واحد، وهذا ينطبق في حالة الإحساس بالحرارة، وما شابهها من حالات أخرى، فكما يحس كل واحد تكون الأشياء بالنسبة له(10). أي بمعنى: أنَّ الأشياء بالنسبة إليك هي كما تبدو لك، وبالنسبة إليَّ هي كما تبدو لي، أنت إنسان، وأنا إنسان...وقد يرتعش أحدنا من ريح ولا يرتعش الآخر منه، وقد يحس أحدنا بأنَّها باردة، والآخر بأنَّها حارة، أي نسبة الإحساس لكل منا تتفاوت، وأنَّ ما يبدو للشخص الواحد أنَّه حقيقي، وهو ما يحس به في ذاته ويدركه.

ويتساءل الأستاذ (برنت)على لسان جعفر آل ياسين في كتابه (فلاسفة يونانيون من طاليس إلى سقراط): عن الأسباب التي دفعت بروتاجوراس إلى استعمال لفظة (مقياس)

في عبارته السابقة. فيرجِّح في تبريره لهذا الاختيار أنَّ الرجل بادئ الأمر هاجم العلم الرياضي بمناقشات طويلة، مدعياً أنَّ علماء الهندسة يذهبون إلى أنَّ ساق المربع وقطره ليس لهما (قياس) مشترك، بل الإنسان هو المقياس لذلك. فكأنَّ هذه المقايسة التي أضيفت للإنسان في الجانب الرياضي اقتبسها بروتاجوراس حين صاغ عبارته المذكورة أعلاه، ثم أطلقها بعامة على الإنسان كمقياس للأشياء، يحكم عليها بأفضلها لا بأصدقها[11].

وإذا صح موقفه هذا من العلم الرياضي، فمن المحتمل جداً افتراض اجتماعه برجل الرياضة في عصره زينون الايلي (490 –420 ق.م)[12].

ومهما يكن فبروتاجوراس حمل كلمة (الأشياء) على المعاني الحسية كالحار والبارد، والحلو والمر من جهة، وعلى الصفات الكيفية كالقبح والجمال، والخير والشر، والخطأ والصواب من جهة أخرى. وصدَّر موقفه هذا بوجهة نظر نفعية في الحالتين تنتهي إلى أنَّ الحاكم الأصيل هو المدرك الحسي مع تفاوت في نسبية هذا الإدراك[13].

فحينما قال بروتاجوراس إنَّ الإنسان مقياس الأشياء، كان يعني أنَّ الحواس لدى كل منا هي معيار الوجود. وبما أنَّنا نختلف حينما يدرك بعضنا ما لا يدركه الآخرون، فالإنسان هنا هو الإنسان الفرد، والمعيار المعرفي هو الحواس وليس العقل، أو أي أداة معرفية أخرى.

وهنا أثار المفسرون مشكلة هل قصد بروتاجوراس في عبارته السابقة أنَّ الإنسان ككل هو المعيار؟ أم الإنسان كفرد؟ والحق أنَّه قصد الإنسان كفرد، فليس صعباً إدراك ذلك فالإنسان عنده ليس إلا أنا وأنت كفرد، وكلانا تقع في خبرته الأشياء الحسية على نحو يختلف عن الآخر، فما أراه أنا فهو موجود بالنسبة لي، وما لم أره فهو غير موجود بالنسبة لي. وهكذا فحسم الأمر عنده يرجع للخبرة الحسية للفرد، وليس لخبرة الإنسان الحسية ككل، كما يقول مصطفي النشار في كتابه (فلاسفة أيقظوا العالم) على لسان جومبرز[14].

نفهم من ذلك أنَّ بروتاجوراس يقر بنسبية المعرفة الإنسانية، واختلافها من شخص إلى آخر؛ بناءً على نسبية إدراكاتنا الحسية، فمثلاً (ما يقع في خبرة كل منا الحسية هو موجود بالنسبة له، وما لا يقع في خبرته الحسية يعد غير موجود بالنسبة له) وهكذا...وقد تمادى

بروتاجوراس في إقرار نسبية المعرفة الإنسانية لدرجة أنَّه أقرَّ بنسبية إحساساتنا من وقت إلى آخر. فإنْ تذوَّقت العسل الآن ووجدته حلواً، فهو حلو بالنسبة لي، أمَّا إنْ تذوَّقته وأنا مريض مثلاً ووجدته مراً فهو في هذه اللحظة سيكون مراً بالنسبة لي[15]. أي بمعنى أنَّ بروتاجوراس إلى جانب إقراره بنسبية المعرفة الإنسانية أقرَّ أيضًا بنسبية الإحساسات وجعلها معياراً لحقيقة الشيء، وأنَّه لم تعد هناك حقيقة مطلقة حول أي شيء، وحول وجوده، بل اعتبر كل شيء خاضع للإدراك الحسي لكل منا، مع اختلافه من شخص إلى آخر، بل واختلافه لدى الشخص الواحد من وقت إلى آخر.

فالحواس والإدراك الحسي إذن هو المعيار الذي يقيس به الفرد وجود الأشياء جميعاً، إنَّ كل إنسان فرد هو مقياس ما هو حقيقي بالنسبة له، وليست هناك حقيقة سوى إحساسات وانطباعات كل واحد منا، فما يبدو حقيقي بالنسبة لي فهو كذلك، وما يبدو صادقاً بالنسبة لك فهو كذلك أيضًا[16].

هذا الإقرار بنسبية الحقيقة واختلافها من شخص إلى آخر، تبعاً لإدراكات كل منهما الحسية هو ما جعل بروتاجوراس يقول ببساطة وبدون أنْ يتنصل من نتيجة فكرته الأساسية؛ إنَّ القضيتين المتناقضتين يجب أنْ تكون كلتاهما صادقتين[17]. وينسب له أفلاطون في محاورة (ثياتيتوس) نظرية حسية في المعرفة، وتنتهي إلى إنكار وجود الحقيقة الموضوعية ذلك لأنَّ كل ما يبدو للفرد حقيقي بالنسبة له، ولا يوجد معيار ثابت يمكن الرجوع إليه لتصحيح المعرفة. فإحساسات الإنسان تختلف دائماً بحسب حالاته، ولأنَّ المحسوسات ذاتها في تغير مستمر، ومثل هذه النظرية تنتهي إلى الشك[18].

وفي تفسير آخر قد لا تنتهي إلى الشك في إمكانية الوصول إلى حقيقة، وذلك إذا لم تفسَّر كلمة الإنسان إلى معنى الفرد، وإنَّما النوع البشري. فما يبدو للبشر موجوداً فهو موجود، وما لا يبدو كذلك لا يكون موجوداً. ولكن حتى هذا التفسير لم يرض عنه أفلاطون ولا أرسطو، إذ تساءلا : ولمَ اختار بروتاجوراس الإنسان ليكون مقياساً لوجود كل شيء؟ ولمَ لا يكون الخنزير أو البقر أو أي حيوان آخر ذي إدراك؟[19]. الحقيقة في رأي مصطفي النشار في كتابه (تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي) وأنَّا أوافقه الرأي: إنَّ بروتاجوراس لم يكن يقصد الإنسان بهذا المعنى الكلي، بل كان يقصد الإنسان

كفرد هو معيار الوجود، فمعظم الانتقادات التي وجهها أفلاطون لهذه النظرية كانت تركز على الإنسان الفرد باعتباره هو الذي يحس، وباعتبار أنَّ إحساسه يختلف من وقت إلى آخر، تبعاً لحالته الصحية، فمثلاً إذا كان سليم الجسم فإحساسه بطعم الأشياء يختلف عن إحساسه بطعمها وهو مريض[20].

ومع كثرة الانتقادات التي وجَّهها أفلاطون إلى هذه النظرية البروتاجوراسية، إلا أنَّه لم يحسم النقاش، إلا حينما كشف عن وجهة نظره بقوله على لسان سقراط: "إنَّنا لا نعرف بالحواس، وإنَّما من خلال الحواس"[21]. أي أنَّ المعرفة لا تبدأ إلا حينما يتلقَّى العقل ما تنقله إليه الحواس ويحكم عليه. والمعرفة تبدأ في رأي أفلاطون من هذه الأحكام العقلية على تلك المعطيات الحسية، التي تنعكس على صفحة العقل بتوسُّط الحواس، فالحواس ليست إلا معبراً تنتقل عبره تلك المعطيات الحسية، ومن ثم لا تعرف، وإنَّما تنقل مادة المعرفة إلى العقل.

ولنرجع إلى المحاورة حيث نجد سقراط يعترض اعتراضات جديدة، أساسها الأحلام، والأمراض، والجنون، وأنواع خداع الحواس. فنحن نعتقد أنَّ الأحلام حقيقة، وكذلك الخداع. ثم يضيف قائلاً: "كان ينبغي أنْ نقول لا شيء يوجد مما يبدو للحواس، بدلاً من قولنا الأشياء موجودة حين تبدو للحواس"[22]، ثم كيف نحكم أنَّنا الآن أيقاظ ولسنا نيام؟ إذ من الممكن أنْ تكون المحاورة حلماً يدور بين سقراط وتيتياتوس. كيف يمكن الحكم على صدق الحواس؟ لا في اليقظة ولا في النوم، بل في حالة الجنون والاضطرابات الأخرى؟.

وهناك مثال آخر يوضح بأنَّ سقراط وهو صحيح الجسم. يختلف عن سقراط وهو سقيمه، ومن ثم تختلف إحساساته تبعاً للصحة والمرض، فالخمر التي يشربها وهو في صحة جيدة تبدو حلوة ولذيذة، لكن إذا شربها وهو عليل يحس بها مرة، فالخمر هي والشيء الخارجي واحدة، ومع ذلك يتأثر بها تأثراً مختلفاً. هناك إذن علاقة بين المدْرِك والمدْرَك، وتتغير هذه العلاقة مع اختلاف ظروف الشخص، وليس لنا الحق في الشيء معرفة مطلقة[23].

كان بروتاجوراس متسقاً مع نفسه، ومع جوهر فلسفته حينما كتب (عن الآلهة) لا استطيع أنْ أعلم إذا كانت الآلهة موجودة أو غير موجودة، ولا هيئتها ما هي؟ لأنَّ أموراً كثيرة تحول بيني وبين هذه المعرفة، منها غموض الموضوع وقصر الحياة[24].

أثار الأثينيون واعترتهم الدهشة حينما سمعوا بهذا القول لأنَّه فوق ما تحملته ديمقراطيتهم السياسية، لقد كانوا شديدي التأثر بكل ما يتعلق بالمسائل الدينية، ولذلك حاكموه وطالبوا بطرده أو بنفيه بعد إحراق كتبه.

ومع ذلك فقد كان هذا القول عن الآلهة رغم غرابته متسقاً مع نظرية بروتاجوراس عن المعرفة، فمادام الإنسان الفرد بحواسه هو معيار وجود الأشياء جميعاً؛ فمسألة وجود الآلهة إذن ينبغي أنْ تخضع لهذه النسبية ولنفس المعيار، ومادامت الحواس غير قادرة على ادارك هذا النوع من الوجود (أعني وجود الآلهة) فالموضوع إذن غامض، كما أنَّ حياة الإنسان قصيرة لدرجة أنَّه لا يمكنه أنْ يأمل في أنْ تقع الآلهة في نطاق خبراته الحسية ذات يوم![25].

ولو تأملنا عباراته السابقة لما وجدنا فيها ما يدلّ على الإلحاد،–ونتفق مع جعفر آل ياسين– في الرأي؛ لأنَّ الإنكار هنا لا يرتفع إلى الإيمان بحقيقة ثابتة، ثم محاولة الخروج عليها، فهذا أمر لا يساير أسلوب بروتاجوراس في المعرفة، بل يبدو أنَّه قصد – على افتراض صحة نسبة العبارة إليه– إيضاح فكرة أنَّ إدراك الآلهة والإحاطة بها أمر لا يتيسر للبشر لأنَّهم قاصرون عن معرفة كهذه[26].

لقد تصور بروتاجوراس أنَّه سينجح بهاتين الحجتين؛ غموض الموضوع، وقصر الحياة في الإفلات من قبضة الاثنتين، ويتجاوز تعصبهم لكنهم كانوا قد نفذ صبرهم بسبب حوادث الكفر المتكررة على حد تعبير ماكسيم شولSchuhl. وعلى أي حال فمهما كانت النتائج العملية التي ترتبت على إعلان بروتاجوراس رأيه في المعرفة، وفي الوجود الإلهي فأنَّه ظل مخلصاً لمنطق نظريته الحسية في المعرفة إلى أبعد حد، فالإحساسات هي وحدها الصادقة، وهي معيار الحقيقة، والمعرفة نسبية تختلف من شخص إلى آخر، والوجود الخارجي متوقِّف على المدرك الذي يدركه[27].

ثالثاً-الأخلاق والتربية عند بروتاجوراس:

يعد بروتاجوراس أول من أسَّس مذهبه على نسبية وذاتية الوجود والمعرفة، لقد كان طبيعياً أنْ تمتد نظرية بروتاجوراس في نسبية المعرفة إلى الأخلاق؛ فطالما أنَّ الإنسان الفرد هو معيار وجود ما يوجد، ولا وجود ما يوجد، فهو كذلك معيار الخير والشر، فإنْ قال عن شيء إنَّه خير، فهو خير بالنسبة له، وإنْ قال عن شيء إنَّه شر فهو شر بالنسبة له أيضاً! إنَّ نسبية المعرفة تستتبع إذن نسبية الفضائل بحسب ما يراه كل شخص، تبعاً لما يحقِّق مصلحته الشخصية ومنفعته! إنَّ النسبية في إطارها العام قد تعنى إحدى الشيئين الآتيين:

(1) لا يوجد شيء يمكن نقول عنه خير، أو شر بصفة مطلقة وبدون تحفُّظ؛ ذلك لأنَّ أثر أي شيء يختلف تبعاً للفرد المتأثر به، وللظروف المحيطة به. فالشيء الذي يعد خيراً بالنسبة لفرد ما، قد يكن شراً بالنسبة لفرد آخر، وما هو خير للأول في وقت ما، قد لا يكون كذلك بالنسبة له في وقت آخر. فموضوعية الأمر الخير شيء قائم ومعترف به لكنه يختلف من شخص لآخر.

(2) عندما يقول متحدث ما بأنَّ الخير أو الشر شيء نسبي، فقد يعني أنَّه لا يوجد خير أو شر. ولكن العقل يجعله كذلك. فقد أشار هيراقليطس (HeracLItas) إلى النوع الأول من النسبية عندما تحدث عن اتحاد الأضداد، "إنَّ ماء البحر في نفس الوقت نقي وملوث. فهو صالح للشرب وضروري للأسماك، غير صالح للشرب وقاتل للإنسان"[28].

إنَّ بروتاجوراس يؤكد أيضاً على هذه العلاقة بين نسبية الخير والمنفعة قائلاً : إنَّ الخير متساوٍ مع النافع للإنسان... فعلى سبيل المثال زيت الزيتون هو سيء بالنسبة للنباتات، ضار للشعر عند كل الحيوانات ما عدا الإنسان. فهو نافع للشعر والبدن على حد السواء. لذلك فالتنوع وتعدد الشكل هو الخير، وحتى معنا يكون الشيء الواحد خيراً إذا استعمل خارجياً، ولكن قاتل إذا استعمل باطنياً[29].

فضَّل بروتاجوراس الكشف عن أساس التصورات الأخلاقية عند البشر من خلال التميز بين اصطلاحي (الطبيعة physis)، و(الاتفاق Nomos) أي الموجود بالطبيعة

والموجود باتفاق الناس[30]. أي بمعنى التمييز بين الموجود بالطبيعة دون تدخُّل من الإنسان، وبين الموجود بالاتفاق أي من اصطناع الإنسان.

ولا شك لديه في أنَّ ما نسميه فضيلة هو من نبت خبرة الإنسان العلمية. وبالتالي فتصور الفضيلة من التصورات الاتفاقية التي اصطنعها الإنسان، واتفق عليها بني البشر، وإنْ كانوا يميزون عموماً بين الخير والشر، وبين طريق الفضيلة وطريق الرذيلة، فهم يختلفون فيما بينهم في مسميات الفضائل وتوصيفها، حيث أنَّ كلاً منهم يربط بما هو نافع ومفيد له وبين الفضيلة، فشرط الفضيلة النفع، وعلامة الرذيلة الضرر[31]. وحيث كان بروتاجوراس يعارض فكرة (الطبيعة) فهو يذهب إلى أنَّ سلوك الناس وأخلاقهم تخضع للنواميس، أو للتقاليد والعادات الجارية في الاستعمال عند الجماعات المتحضرة. وليس للإنسان في حالة المعيشة الفطرية أخلاق، وإنَّما تنشأ الأخلاق مع المدينة، وتنحدر مع التقاليد. ومن أجل ذلك كان لابد أنْ ينشأ المعلمون الذين يلقنون أهل المدينة الفضائل المختلفة، إذ لو ترك كل شخص لنفسه ما استطاع أنْ يعلم نفسه[32].

من هنا كانت التربية لازمة لصالح المدينة، وتبدأ التربية من الصغر عن طريق الآباء والمراضع والخدم الذين يعلمون الطفل أنَّ هذا حسن وهذا قبيح. ثم يذهب الطفل إلى المدرسة الأولية حيث يتعلَّم القراءة والكتابة، ويأخذ عن الشعراء التعاليم الخلقية، كما يتعلم بالرياضة البدنية الخشونة والرجولة وضبط النفس، وهي فضائل خلقية لازمة للكفاح والدفاع عن المدينة. حتى إذ تخرَّج في المدرسة ونزل إلى معترك الحياة، تعلَّم من (شرائع) المدينة كيف يسلك في المجتمع؟ وكيف يسوس ويساس؟ وإذ انحرف عن القوانين نزل به العقاب [33].

مما يؤثر عن بروتاجوراس قوله في التربية: "يحتاج التعليم إلى الموهبة والممارسة" [34]. أي بمعنى أنَّ تربية الطفل كانت تبدأ بالطبع في المنزل ويقوم بها، إلى جانب الأم والأب، والمرضعة، والعبد القائم على توجيه الصغير ورعايته، وهم جميعاً يستخدمون الإرشاد، ويستخدمون الإنذار والعقاب. وحين يحين السن يرسل الطفل إلى المدرسة، وهناك تستمر تربيته الأخلاقية إلى جانب تعلمه اللغة والموسيقى. وما أنْ يعرف القراءة

حتى توضع بين يديه قصائد كبار الشعراء التي تمجِّد البطولة والأبطال المشهورين، فيمتلأ الطفل رغبة في الاقتداء بهم [35]. وكذلك يفعل مدرسو الموسيقى: فهم يحاولون غرس الانسجام والتوافق في نفوس الأطفال؛ حتى تصير وديعة بعيدة عن الجفاف. وبعد هؤلاء وأولئك يأتي دور مدرسي التدريبات الرياضية، ومهمتهم أنْ يضعوا جسداً قوياً قادراً على تحمل الحرب في خدمة مواطن المستقبل. هذه جوانب التربية التقليدية الرئيسية، ويؤكد بروتاجوراس على أنَّ العناية بالطفل تزداد بازدياد عائلته: وهــكذا فأطفال الأغنياء هم أول من يذهبون إلى المدرسة، وآخر مــن يتركونها (والإشارة هنا إلى عدد السنين التي يقضيها الأطفال في المدرسة)[36].

فنحن نرى إذن أنَّ حياة الفرد في المدينة سلسلة من التربية الخلقية التي يلتقطها الفرد من البيئة، أو يوجَّه إليها بواسطة المعلمين. فلا غرابة أنْ يكون بروتاجوراس هو الذي شق الطريق لأفلاطون في (الجمهورية) التي يبسط فيها نظاماً للتربية يهدف إلى تحقيق العدالة، وتكوين المدينة الفاضلة. ومن أجل ذلك قيل أفلاطون سرق أفكاره من بروتاجوراس، والصواب أنْ يقال إنَّه سار على طريقه، وحل المشكلة بطريقة أخرى. ذلك أنَّ التفكير في تحقيق العدالة ليس وفقاً على بروتاجوراس وأفلاطون وحدهما، بل هي مشكلة كل عصر، وكل زمان حتى اليوم[37].

وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي يعنيه سقراط على بروتاجوراس؟ الخلاف بينهما هو الخلاف بين السفسطائي والفيلسوف، ذلك أنَّ بروتاجوراس يذهب إلى نسبية الأخلاق تبعاً لاختلاف شرائع المدن وتقاليدها، أمَّا سقراط فيطلب الخير المطلق مع قطع النظر عن العرف السائد في كل مدينة، فالفضيلة عنده تقوم على المعرفة الثابتة كالعلم الرياضي سواء بسواء. أمَّا الفضيلة التي يعلمها بروتاجوراس فهي التي يسميها سقراط الفضيلة الشعبية في مقابل الفضيلة الفلسفية، والفرق بينهما هو الفرق بين الأصل الحقيقي ومحاكاته. ثم كيف يزعم بروتاجوراس أنَّه يستطيع تعليم الأثينيين فضائل مدينتهم مع أنَّه غريب عنها؟[38].

رابعاً- إسهامات بروتاجوراس في علم اللغة:

مهما يكن من شيء من التساؤل السابق كان بروتاجوراس معلماً مشهوراً ناجحاً يتهافت عليه الأثينيون، ويأخذون عنه العلم. وكان الفن الذي يعلمه بوجه خاص هو فن الإقناع. وكان يعنى بوجه خاص الدفاع عن القضايا الضعيفة، وإبراز الحجج التي تؤيدها، أو على أقل تقدير أنْ يحتج للقضيتين المتقابلتين أنَّهما صادقتان. واعتمد في ذلك على التمكن من اللغة ومعرفة أسرار الألفاظ، وتركيب العبارة وحسن البيان، والبصر بالمأثور من الشعر، وكان يؤثر الخطاب الطويل على الحوار الذي يتألف من سؤال وجواب [39].

وفي محاورة بروتاجوراس نجده يقول لسقراط: "أتود بصفتي أكبر منكم سناً أنْ أتحدث إليكم في هيئة خطاب أو أسطورة، أو أنْ أتناظر وإياك في المسألة؟"[40]. استعمل في تلك المحاورة الأساليب الثلاثة: أي الخطابة والأسطورة والمناظرة، ويقال بأنَّه قسَّم الكلام أربعة أضرب هي: الدعاء، والسؤال، والجواب، والأمر. وقيل بل سبعة هي: الحكاية، والسؤال، والجواب، والأمر، والتقرير، والدعاء، والطلب. وكان يسمِّيها دعائم، أو أسس الكلام[41].

ويعد بروتاجوراس أيضاً أول من صنَّف الأجناس المختلفة في اللغة اليونانية حيث كان يقسِّم المقال إلى مقدمة أو استهلال، ثم عرض للموضوع، فخاتمة أو خلاصة، ومن ثم يكون قد ساهم مساهمة فعَّالة في وضع بعض الأسس بفن البلاغة عند الإغريق. وكانت له محاولات جريئة في مجال اللغة، فقد نبَّه إلى التأنيث والتذكير، وفرَّق بين زمان الأفعال وصيغتها، فقد كان له فضل كبير في وضع قواعد اللغة، وبيان ضروب الجمل: الاستفهام، الأمر، الجملة الخبرية والدعاء، كما بحث في أصل اللغة، فلا غرو أنْ يكون النحوي الأول الإغريقي، كما كان السفسطائي الأول غير أنَّ ما يؤخذ عليه أنَّه في ابتكاره القواعد حاول أنْ يخضع أصول النحو للمنطق والعقل[42].

نفهم مما سبق أنَّ بروتاجوراس أسهم إسهاماً بالغاً في وضع قواعد اللغة وأصولها، كما وضع طريقة لكتابة البحث العلمي، وذلك من حيث تقسيم المقال ومحتوياته، كمالا ننسى إسهاماته في فن الإقناع، وذلك عن طريق الدفاع عن بعض القضايا وإبراز الحجج

التي تؤيدها، وكذلك أهتم بوضع بعض الأسس لعلم البلاغة. زد على ذلك الخطابة والحوار والمناظرة.

الخاتمة:

توصلت الباحثة إلى مجموعة من النتائج يمكن استخلاصها في الآتي:

1 – يعد بروتاجوراس أول من اهتم بالنزعة الإنسانية، فكان ذو عقلية متسائلة تبحث دائماً عن فهم و إدارك ما يدور حول الإنسان، وحقيقته ومعرفته، فلقِّب بمؤسس التيار السفسطائي، وأصبح زعيماً لحركة التنوير السفسطائي، كما أصبح الجد الأول للنزعة البرجماتية في الفلسفة قديماً وحديثاً.

2– كان لبروتاجوراس رأي شامل جامع عن العلم مبنى على الحوار والخطابة والمناظرة؛ مما جعل أفكاره تميزه كمبدع ومحدِّث في تاريخ الفكر البشري.

3– حاول بروتاجوراس البحث عن المبدأ الحقيقي للأشياء، فوجده ليس في العناصر المادية كما اعتقد الفلاسفة الطبيعيون الأوائل، بل العقل بالذات الذي نجده في الإنسان فعبَّر بمقولته الشهيرة (الإنسان مقياس الأشياء جميعاً)، ورأى أنَّ المعرفة لا تتعلق بالموضوع المدرك فقط ، بل بالذات المدركة أيضاً؛ مما جعله يعد المعرفة نسبية وليست مطلقة، وأنَّ لأشياء تنبع من داخل الإنسان، وليس من العالم الخارجي.

4– إنَّ الإسهامات اللغوية الرائدة التي اتفق عليها الجميع لبروتاجوراس، ومهاراته الخطابية والجدلية لا تبارى، وبفضلها أسهم بروتاجوراس بنصيب كبير في وضع علم النحو اليوناني، واعتراف أفلاطون له بهذا الفضل حيث أكد أنَّه أول من بحث في الطريقة الصحيحة لاستعمال الألفاظ، من ثم التحدث عن أزمنة الأفعال وحالاتها.وأنَّ له آراء متفرقة في العلوم الطبيعية، وأنَّه كانت له مدرسة خاصة في تعليم الهندسة، فكان يرى أنَّ قضايا الهندسة هي صور معقولة لا تتعلق صحتها بالواقع، إذ أنَّنا لا نستطيع مثلاً أنْ نحدِّد بالحس أين تبدأ الدائرة؟

5– يعد بروتاجوراس أول من اعترف بنسبية المعرفة والأخلاق، وذلك تبعاً لاختلاف شرائع المدن وعاداتها وتقاليدها، مما كان له الفضل في الكشف عن أساس التصورات

الأخلاقية عند البشر من خلال الموجودات الطبيعية، أي دون تدخُّل الإنسان، والموجودات الصناعية أي التي ساهم الإنسان في صنعها.

هوامش البحث ومصادره:

(1) محمد علي أبوريان، تاريخ الفلسفة اليونانية من (طاليس إلى أفلاطون)،ج1، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية،1990م، ص102.

(*) السفسطائيون: مع حلول منتصف القرن الخامس ظهر معنى مصطلح السفسطائي، وهو: أنَّ السفسطائي معلم محترف يعلِّم الفضيلة والنجاح السياسي مقابل أجر، وفي النهاية استقر معنى السفسطائي إلى أنَّه رجل مجادل وصاحب حكمة زائفة، لا يهمه الوصول إلى الحقيقة، قدر ما يهمه خصمه وتحقيق النصر السريع عليه. محمد فتحي عبد الله، جيهان السيد شريف، الفلسفة اليونانية مدارسها وإعلامها،ج1 من (طاليس إلى أفلاطون)، كلية الآداب، جامعة عين شمس، (بدون تاريخ)، الهامش، ص 243.

(2) مصطفي حسن النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي (السفسطائيون – سقراط – أفلاطون)،ج2، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص43.

(3) المرجع السابق، ص43.

(4) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(5) أفلاطون، محاورة تياتيثوس أو عن العلم، ترجمة: أميرة حلمي مطر، دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 2000م، ص14.

(6)كريم متي، الفلسفة اليونانية، مطبعة الإرشاد، بغداد،1971م، ص115.

(7) المرجع السابق، ص115.

(8) المرجع نفسه، الصفحة نفسها، ص115.

(9)أفلاطون، محاورة تياتيثوس أو عن العلم، مصدر سابق،الفقرة (152 A)، ص39، 40.

(10) المصدر السابق، ص40،39.

(11) جعفر آل ياسين، فلاسفة يونانيون،(من طاليس إلى سقراط)، منشورات عويدات، بيروت، ط2 1975م، ص 158.

(12) المرجع السابق، ص158.

(13) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(14) مصطفي حسن النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط3، 1998م، ص74.

(15) مصطفي حسن النشار، مدخل إلى الفلسفة، الدار المصرية السعودية، القاهرة، 2005م، ص40.

(16) مصطفي حسن النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، مرجع سابق، ص 48.

(17) المرجع السابق، ص48.

(18) أميرة حلمي مطر، الفلسفة عند اليونان، دار النهضة العربية، القاهرة،1977م، ص 122.

(19) المرجع السابق،122.

(20) مصطفي حسن النشار، الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، مرجع سابق، ص47.

(21) مصطفي حسن النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، مرجع سابق، ص75.

(22) أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية قبل سقراط، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ط1، 1954م، ص267.

(23) المرجع السابق، ص267.

(24) مصطفي حسن النشار، الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، مرجع سابق، ص49.

(25) المرجع السابق، ص49.

(26) جعفر آل ياسين، مرجع سابق، ص162.

(27) مصطفي حسن النشار، مرجع سابق، ص49.

(28) أبوبكر إبراهيم التلوع، الأسس النظرية للسلوك الأخلاقي، منشورات جامعة قار يونس، بنغازي، ص34،35.

(29) المرجع السابق، ص35.

(30) أفلاطون، محاورة بروتاجوراس، ترجمة: عزت قرني، مكتبة سعيد رأفت، القاهرة، 1982م، (324 د)، ص94.

(31) مصطفي النشار، فلاسفة أيقظوا العالم، مرجع سابق، ص77.

(32) أحمد فؤاد الأهواني، فجر الفلسفة اليونانية، مرجع سابق، ص272،271.

(33) المرجع السابق، ص273.

(34) أفلاطون، محاورة بروتاجوراس، مصدر سابق، الفقرة (320ج-322د)، ص44-47.

(35) المصدر السابق،(325ج -326 ه)، ص47.

(36) المصدر السابق، ص48،47.

(37) أحمد فؤاد الأهواني، مرجع سابق، ص273.

(38) المرجع السابق، ص273. وأفلاطون، محاورة بروتاجوراس، مصدر سابق، الفقرة (329 أ)، ص48.

(39) أحمد فؤاد الأهواني، مرجع سابق، ص273.

(40)المرجع السابق، ص273.

(41) المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

(42) حربي عباس عطيتو، ملامح الفكر الفلسفي عند اليونان، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 2003م، ص234،233.